ذكرياتى مع الدكتور شوقى ضيف

د. أحمد عبد الستار الجوارى

عرفت شوقى ضيف أول ما عرفته مؤلفاً لكتاب معجب قيم، طار صيته فى أوساط الأدباء، وطلاب الأدب العربى المولعين به وبتاريخه، ذلك هو كتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى». وتمثلته شابًّا نشيطًا سريع الحركة، يفيض حيوية، ويتدفق مرحًا، ثم كتب الله لى أن أجلس بين يديه طالبًا فى كلية الآداب، فإذا بى تجاه رجل عليه من وقار العلماء، سيماء واضحة، وفيه من شغف بالعلم والتعليم ذخيرة يكتنزها فى ذهن نشط وفكر جوّال، لم يكن فيه من طباع من كانوا فى مثل سنه، وفى مثل موقعه، تلك الخفة وذاك الطيش، ولكن فيه نشاط الشباب، وقدرته على العمل الدائب فى صبر وفى جلد، وفيه جدّ وفيه استقامة وحرص، حتى إنه لم يكن يهدر من وقت الدرس شيئًا فى غير جواب عن سؤال، أو شرح لمسألة، يطلب إليه شرحها.

ومرت أيام الدراسة، وكلما تعاقب مدار الزمن، ازددتُ بشوقى حبًا وإعجابًا، ولكنه إعجاب مشوب بشىء من المهابة التى قد تصل إلى الرهبة، لأنه كان حريصًا على ألا يؤثر من طلبته أحدًا على أحد، ولا يخص بعضهم بما يزيد من حقه عليه كأستاذ مرشد موجّه.

ثم جمعتنا أبوة ذلك الطور الشامخ، والعلم الفرد أحمد أمين، فصرنا نلتقى أخوين: كبيرًا يحنو على أخ له صغير، يفتح له قلبه ويفسح له فى عواطفه ومشاعره، ويبذل له من جهده العلمى القيم، ما أعانه على المضىّ فى بلوغ ما أراد من درجات علمية.

كل ذلك الود، وكل تلك الأخوة الصادقة، كان يزينها جدّ وحرص، ووقوف عند جانب الحق والصدق بلا تساهل ولا مجاملة، وكانت مقالة الصدق على لسانه حبيبة محببة، لا يضيق بها الصدر، ولا تنكرها المشاعر.

وظل شوقى ضيف أخًا يسرّ لما يسر به أخوه، يتفقده ويتحسس مكانه من نفسه، وامتدّ ذلك الودّ، واتسع مداه حتى بلغ الأسرة الكريمة النجيبة، وزاد فيها أن أم عاصم كانت أختًا ودودة، صادقة الأخوة عميقة المودّة، وكان والدها المربى الفاضل والمعلم الجليل أبًا لهذه الأسرة، يفيض

عليها من كريم خلقه وفيض محبته ما يؤنس، وما يملأ النفس راحة وأمنًا وطمأنينة، رحمه الله وأجزل له واسع المثوبة والرحمة.

إن فى الدكتور شوقى ضيف من مزايا الجدّ والصدق والحرص على إتقان العمل ما لا يعرفه إلا الذين عاشروه وخبروه عن قرب، وتغلغلوا فى صميم نفسه وفى سويداء قلبه مثلما كان من كاتب هذه السطور، ومثل من ذلك أنْ كان واحدًا من أعضاء لجنة مناقشتى فى الدكتوراه، لقد حرص وأصرّ على أن يتحفنى بنتائج دراسته للرسالة، جذاذات مكتوبة بخطه الجميل المنظم، وأسلوبه الرشيق، وأفكاره الهادية المرشدة السديدة.

ويشهد الله أنّ ما كسبت من الجلوس فى الدرس بيْن يديه لا يقل، بل قد يفوق ما أخذته عنه أخذًا مباشرًا فى جلسات خاصة، كان يؤثرنى فيها بكل طيب فى المادة والمعنى، وما يزال ولن يزال بإذن الله يواليني من التوجيه الرفيق، والرأى السديد.

إن شوقى ضيف ذخيرة من علم وخلق وودّ وصدق، ودأب على العلم آتاه الله قدرة عليه قل نظيرها فى من نعرف فى جيلنا هذا، وهو جدير بكل تكريم وتقدير وعرفان بالجميل.

أطال الله بقاءه وأقر عينيه بعاصم ورندة، وأضفى على أسرته الكريمة وقرينته الفضلى أم عاصم كل خير وعافية وراحة بال.

* * *

أما شوقى ضيف العالم الأديب المحقق، فإن ما أخرجه للدارسين والمدرسين وعشّاق الأدب العربى، واللغة العربية، هو الذى يدل على مكانه الرفيع بين من كتب وألف، وحقق ونشر، وحسبه أنه فى هذا العصر ثانى اثنيْن وضعا فى الفكر العربى، والأدب العربى ما يصح أن يسمى «موسوعات»: أولهما أستاذنا ووالدنا، أحمد أمين تغمده الله برحمته ورضوانه، فإنه قد جمع فأوعى فى «فجر الإسلام» و «ضحى الإسلام» و «وظهر الإسلام»، وعرض الفكر العربى والإسلامى ذلك العرض الذى هو أشبه مما يعرف بالسهل الممتنع، لأمور دقيقة عميقة تنوء بها العصبة أولو القوة.

والثانى هو الأستاذ الدكتو شوقى ضيف، الذى وضع للأدب العربى وتاريخه موسوعته الجهيرة فى تاريخ الأدب العربى بعصوره المتتابعة، بدءًا بالعصر الجاهلى وانتهاء بالعصر الحديث، عمل لم ينهض به من قبله أحد، فى مثل هذا الاستيعاب والعرض المبسوط القريب المنال.

أما آثاره فى النحو وإصلاحه فهى مذكورة مشهورة، ولقد بدأها فيما أعلم بنشر كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى، والمقدمة التى افتتح بها نصه المحقق على أحسن وجه درس قيم، لذلك المذهب الذى مازال دارسو النحو والمحاولون تيسيره، يتزودون منه بزاد قيم.

وكتبه فى المقاهب النحوية، وفى تجديد النحو تشهد له بالغيرة على لساننا العربى، وباجتهاده فى إقالة عثرات النحاة، وتسديد مسار هذا العلم الجليل.

وبعد فإن حديثى عن شوقى ضيف، يزيدنى ولوعًا بسيرته الكريمة، ويلذّ لى أن أستعيد ما بيننا من مودة ومحبة، وما أحمله له من إكبار وتقدير وإجلال، وما أشعر به من فخر واعتزاز، بتلمذتى له وبالأخوة الخالصة الصادقة النزيهة التى تجمع بينه وبين كل من سعد به مثلما سعدت.

رعاه الله، وأطال بقاءه، حتى يظل علمًا يهتدى به، ويستضاء بعلمه وخلقه وكريم سجاياه.

ا. د. أحمد عبدالستار الجوارى
أستاذ فى قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة بغداد